سطوع الغياب:
أو : الشِّعر مُحرّراً .. بالموت !

كثير ممن تنافسوا على إقصائه عن الشعر .. يتنافسون الآن على صداقته، وفيما كانت المعاول تبني لعبد الوهاب بيته الأخير، كانت الأيدي تتشابك لاستعادته .. حتى تمزق الكفن، وانخلعت الذراعان من الكتفين.

بيننا .. أكثر من عقدين .. وأكثر من عشرين ديوان شعر، وبيننا أنصاف أصدقاء وأرباع أعداء.. لهذا فالموت مشوب هذه المرة بغبار الأحياء، والبياتي عسير على الدفن لأنه بفائض شغفه للحياة.. استنبت على ظهره سناماً من الشعر الذي قد يسامره في تلك الوحشة..!

أعرف بأنني سأتورط بما احترزت منه، كما يفعل الأحياء عادة عندما يزجون أنفسهم في موت الآخرين، ليتفرجوا، ويتحسسوا أجسادهم للتأكد من أنها لا تزال على سطح الأرض، لا في باطنها.

التقيته.. للمرة الأولى في مكتبة تشبه كوخاً في طولكرم، ولثغت بقراءة أولى لأباريقه.. وبعدها بعشرين عاماً التقاني هو .. في مكتبة بشارع الرشيد في بغداد، ظهيرة عراقية تتَّردد فيها أصداء من مقاطع ليلية، و«الفاختة» تنقر السماء بذلك الأنين الأسطوري الذي شحن الهواء منذ بابل.

ولَوْلاه .. لما مكثت ذلك القوس الأبهى من العمر في بغداد، كنت مبعداً من الكويت وماراً باتجاه بيروت، فاستضافني، ومكثت.

أما هو .. فكيان صلب، يزداد تماسكاً كلما شدته جاذبية ما للإنحناء، حتى عدوانيته المطوّبة باسمه لم تكن سوى دفاع استدراكي. كان غزير الثقة بالنفس، وأحيانا تفيض تلك الثقة فتقضم ما يتاخم ظلها، أما رهانه فلم يتجاوز ذلك الفرس الشموس، الذي حاول امتطاءه حتى القيامة: الشعر.

طفولة موزّعة بالتساوي بين ضريح وليّ ومنزل أقنان استبقه إلى افتضاحه السّياب، توأمه اللدود، الذي مات قبله بأربعة عقود، فأنابه عنه، وافترقا كما يحدث عادة للأنهار وهي تجترح مجرياتها.

ومنذ بواكيره الواثقة، لكن المحاصرة بمناخ ثقافة إتباعية، أفرز البياتي حول ذاته محارة، غالبا ما تحولت إلى فخ لمن حاولوا الإقتراب منه، فكل اقتراب هو شروع في الصيد.

لهذا .. مرات لا تحصى سمعته يعيد أبيات عمرو :

[كلهم يمشي رويد

كلهم يطلب صيد
غير عمرو بن عُبَيْد..]

ومرة قلت له: يا عبد الوهاب بن عُبيد، لماذا جعلت الفقْر مطلباً؟ وبشرت بإدامة الحرمان فردوسا مضاداً؟ ألم تقل في صباك الشعري .. وشيخوخة فقرك:

«أخاف عليك يا فقري
أخاف عليك أن تسرق ..
أخاف وأنت لا تدري»

ما من أحد تشبث بفقره ككنز مثله، لهذا كان وحشياً في تبديد ما يحصل عليه من المال.. حتى جائزته التي جاءت في آخر عقود العمر تقاسمها مع أصدقاء وشعراء من بلاده.

البياتي .. رنين قد لا يهدأ في ذاكرة معاصريه، أما الورثة فلا بد أنهم سيعثرون في الصندوق على أوراق من سيرة غير مدونة، فالشفاهية قدر انتسابها إلى النقد والمساجلة هي «بيّاتيّة» بامتياز في أوج عصر التدوين.

ثلاثة وسبعون عاماً من التجوال ... فالمدن مجرد ممرات نحو المدينة المستحيلة، وكذلك النساء، نيسابور وعائشة .. تزاوج الزمان والمكان، الذي ولد من رحيقه ذلك الشوق الغامض، صوفي في إهاب وثني، ونبيّ سطا على عكاز ساحر...!

تلك هي إشكالية البياتي الذي يتعذر اختزاله، فهو اشتباك دائم بينه وبين شروطه الأرضية، حتى شرطه السماوي لم يسلم من المحاورة، فالتمس إلى ذلك سبيلاً أسطوريا، واستدعى من باطن التاريخ رموزاً لعلها تعينه على حمولة ناء بها.

إن ما يسمى بالنزعة الهجائية عند البياتي هو في حقيقته صراخ يشي باحتقان لم يعثر على متنفس غير شعري، يحقق التوازن لحياة تغلب أحد جناحيها على الآخر وتغذى منه حتى استلّ معظم ريشه.

فالبياتي أبٌ وزوج وعازب، ربّ عائلة وطليق، كينونة برّية تتفلت من كل الأُطر فلم يمكث طويلاً في ذلك الإطار (الشيوعي) الذي وجد نفسه فيه (نقديا). ولم يمكث طويلاً في الوطن الرومانسي الذي شيده في المنفى. أما المنفى.. فهو حرفةٌ أيضاً، إضافة إلى كونه وطناً بديلاً.

ويخطئ من يتبع غواية المنفى البياتي حتى النهاية. منفاه غير جغرافي، وأحياناً ميتافيزيقي، فهو لا يطيق البقاء في مدينة. أما لماذا قضى معظم أيامه على مقاعد المقاهي؟ فذلك هو سؤال المارة بالحياة والشعر، وبه. إنه في المقهى يكون في اللامكان، لهذا عشق الفنادق أيضاً، فهي اللابيوت، وكأن جاذباً كوزموبوليتياً طالما شده إلى ذلك اللامكان. حتى الزمان ضاق به، فسعى بالذاكرة والحلم نحو أزمنة بائدة بمقياس المؤرخ وطازجة كما لو أنها انبثقت للتو بمقياس شاعر.

ذات غروب عباسي، ذهبت بصحبته لزيارة الحلاج في (علاوي الحلة)، وكان الدليل «كراجات» ومحلات خردة، وباعة متجولون. أما الزقاق الذي يفضي إلى العتمة البيضاء فقد كان مختلجا بظلال صبيةٍ لا يعرفون من الذي يرقد بجوارهم.

القفل صدئ .. وحارس الحلاج في مثل عمره .. والسقف يدلف .. أما الضريح فمهجور لأن أبا منصور حُرق وانبث رماده في سماء لم تكف منذ تلك الليلة عن النحيب. استذكرنا معاً طائر «الزُّبزب» ذريعة

السلطة الزمنية الغاشمة للإجهاز على «الحلاّجين».. حلاجي الصوفية والسياسة .. والأزمنة الواطئة. لم نجد القطن منفوشاً على سطح الضريح، أما الخرقة والطبل فهما جناحا قبر يتهيأ للتحليق.

ها أنذا أنزلق نحو ما احترزت منه، فأحشو نفسي مع عبد الوهاب في الحل والترحال.. لكنه يرحل وحده .. بلا حقائب أو معطف كحليّ طالما طواه على ذراعه وهو يعبر سنوات العمر .. من شتاء إلى آخر.

وطنه منفاه ومنفاه اللغة، تلك هي المفارقة الأكثر سطوعاً في شعره وحياته معاً، حيث لم يكن للتخارج بين الدائرتين أن يفضي لغير خاتمة محتمة. لقد وزع لحمه قبل الصمت الأخير في مناقير كثيرة. وأحيانا لقي ما لقيه (باوند) من طعنات أصدقائه الصغار أيام باريس السوداء كما يروي شاهد تلك الظهيرة السوداء (همنجوي).

ليس انتصافاً استباقياً لعبد الوهاب هذا التجوال على تخوم موته، فهو كان ينتزع نفسه من الموت بكل كلمة كتبها، وبالرغم من دُنيويته الصاخبة، وشبقه الشديد للعيش، إلا أنه كان مسكوناً بهاجس الموت لكنه بعكس (السّياب) جاهد لإخفاء هذا الهاجس من خلال التبشير بقوة الحياة وسطوع الشمس حتى في ليل المقابر.

وأغرب ما في تلك السيرة التي شحنتها روح بروميثوس، هو تصديق الشعر كما لو كان بديلاً للحياة برمتها. والبياتي نادَمَ بالفعل وفي عز النهار ضيوف قصائده، من صوفيين وشعراء موتى، وأولياء. لهذا أوشك أن يكون الشاعر العربي الوحيد المتفرغ لمهنته تماماً، فهو عاطل عن كل ما ليس له علاقة بالشعر. حتى شغفه السجالي، وعدوانيته الرشيقة، كانت تلبية لاستكمال القوس الناقص من دائرة القصيدة. هكذا نأت به حرْفة الشعر عن شروط الواقع، اقتصادياً كان أم صحياً. فهو عازف بقوة عن مراجعة الطبيب، يعالج نوبة الرَبو بمزيد من التدخين، ويقاوم غثيان الأحشاء بكأس مضاعفة.

من لا يعرفه عن قرب، يغريه انتحاره البطيء بتحويله إلى أمثولة في حكاية تدمير الذات، لكنه لا يفعل ما فعل بجسده امتثالاً لشهوة الموت الهاجعة، بل تعبيراً عن مزيد من الولع بالبقاء، وتلك أيضاً واحدة من المفارقات «البياتية» بامتياز.

وأحياناً أتساءل عن إناث الشاعر، انطلاقاً من ذلك الحفيف شبه الاسطوري لهن في قصائده: عائشة .. ولارا .. وأميرات آسيا اللواتي ما إن تلوح خصلات من شعرهن حتى يختفين .. وملكات العالم القديم، ومعشوقات الشعراء من رماد ديك الجن إلى نوارس الأندلس ... أين حفيداتهن يا عبد الوهاب في نهارك الطويل وليلك الأقصر؟

أليس مثيراً أن يكون شاعر كعبد الوهاب بتجواله واحترافه العصيان على ناموس العائلة بعيداً كل هذا البعد عن نساء عصره؟

ما من قصة حب في حياته استوقفت معاصريه، وما من امرأة أقامت زمناً على مقعد مجاور في مقهاه. لكأن الأنوثة كالتاريخ والمعابد والثورات مجرد مفهوم يراوح على تخوم المطلق. فالثورات غالباً ما لا تكون مسماة، وكذلك السلاطين، والخصيان، والكتل البشرية الصماء التي تروح وتغدو في ذاكرة مفعمة بالشقاء.

هكذا تغيب «التاريخانية» لصالح الميتافيزيك، حتى حين يكون بطل القصيدة من لحم التاريخ وعظام الجغرافيا.

فما الحكاية ؟

لعلها شغف «بياتي» مبكر بالعالمية، أو الإنسانوية المطرزة بمعجم يستبعد المحلي، ويهمشه لصالح المطلق، وهذا بالطبع قد يثير التباساً نقدياً، ينبغي الإحتراز من التوغل به، لأن البياتي غالباً ما صنفه النقد السايكولوجي مع تلك السلالة الشعرية الحالمة باعتراف كوني، سواء كان ممهوراً بنوبل أو مبثوثاً على امتداد اللغات من خلال الترجمة والأطروحات الإكاديمية!

إن عبد الوهاب المقروء أكاديمياً حتى القتل بحاجة إلى استقراء اليوم وليس إلى مجرد قراءة، فالمسكوت عنه في غابته أكثر من المنطوق به، وذلك لأسباب في مقدمتها، ما ساد من احتراز النقاد واتقائهم الشاعر الذي لا يرضى بأقل من التكريس .. والممالأة!

أأقول أنها «باترياركية» شعرية ساهم النقاد أنفسهم بتغذيتها منذ البواكير؟ أأقول أيضاً إن النقد الايديولوجي وتنابذ انتلجنيسا الخمسينات العربية قد أدى إلى ذلك الركام الذي يحتاج إلى إعادة فرز وتصنيف في زمن أقل اشتباكاً؟

ربما، فالبياتي حوصر لوقت ليس بالقصير بين أقواس، ماركسي لائذ بالقلعة السوفيتية.. في ربيع موسكو .. هذا ما أوحت به كتابات ليبرالية تعاني من بارانويا كلما تعلق الأمر بأدلجة الثقافة. لكن البياتي لم يكن إلاّ «بياتياً»، استحم في الكثير من البحار، وجفف نفسه على الشاطئ ليعود إلى موقعه الذاتي الحصين. إنه أحياناً طاقة من العصيان تبحث عن مجال حيوي لإعلانها. أحياناً يكون هذا المجال القصيدة، وأحياناً يكون سجالاً في مقهى، وأخيراً هو الحياة ذاتها وقد استحالت إلى لحظة شبه مغلقة، بحيث يبدو الزمن ببعديه، الماضي والمستقبل، مجرد أصداء لعزف «أوكارديون» تتناوبه خاصرتا الشاعر وهو يتمحور حول ذاته.

قراءة البياتي بحاجة إلى عيون أكثر اتساعاً وذاكرة نقدية أكثر تحرراً من هذه الذاكرة المفعمة بثقافة الإشاعة (الشفاهية)، فثمرة الصبير الشائكة، أو «القنفذ» الذي يطلق قشعريرته جعبة من سهام لحظة الدفاع يتحول إلى النقيض في عزلته الليلية. وبالمناسبة فإن البياتي غالباً ما يلوذ بالتضليل البريء لكي يوحى لجلسائه بأنه شديد الاصغاء لما يقولون. يردد .. نعم .. نعم .. نعم .. إلى ما لا نهاية وسط سحابات الدخان، وتتحول ساقاه إلى ما يشبه مصدات الصواعق وهي تمتص توتره وترتعش أو تتحرش بسيقان الطاولة. إنه هنا .. وهناك .. وشيئا فشيئاً يصبح هناك (تماماً). أما الندامى فهم (خليلّي) في شعر الأسلاف، مجرد مُخاطب رمزي أو معونة لتزجية الوقت.

بالطبع ثمة مفاتيح ماسية وليس ذهبية فقط يمكن أن تُدار في أقفال البياتي، فيعود على الفور، ويتنبه، ويصغي بالفعل .. لا بافتعال الإصغاء.

لكن من يملك مثل تلك المفاتيح؟

– هل هو الشاعر الشاب الخدوم المنجذب نحو محور الشعر لكي ينال اعترافاً، ويسترضي نرجسية جريحة في ثقافة تُؤْثر الشهرة على كل ما عداها؟

– هل هو الناقد الباحث عن طرق مأمونة، ومطروقة بحيث يطوي في كتابه بوليصة تأمين نقدية مصدرها المكتوب عنه، بكل ما امتلك من تكريس وشرعية؟

– هل هو الشاعر الحداثوي الذي خرج من كم معطف البياتي وعاد لينقر أنفه كي يجرب منقاره الطري؟

اسئلة قد لا تنتهي. لنجرب إذن واحداً من تلك المفاتيح لعل صرير أحد أبوابه ينبئ عن استجابته للضيف.

البياتي أحد جذور قصيدة التفعيلة، وحتى لو استبقته نازك أو السياب فهو الذي لم يتوقف عند بعثرة العمود الشعري، بل الذي خرج بالقصيدة من مناخات الرومانسية الآفلة، لهذا وجد فيه الناقد الرائد د. احسان عباس نموذجاً لرهانه على تحديث الحساسية الشعرية، وكانت الصورة لدى عبد الوهاب هي البديل الأسمى – شعرياً – لضروب التشبيه الكلاسيكية، لكأنه محا المسافة بين الأضداد، فبدت متزاوجة على نحو فريد كما في قصيدته (السوق القديم) وان كان مأخذ مجايليه عليه أنه أسرف في استخدام (الواوات) التي لعبت دور المرتكز الإيقاعي (الخارجي) في البحر (الكامل) الذي ساد في بواكير الشاعر، مما دفع حسين مردان وهو من الشعراء العراقيين المجايلين للبياتي والمعروف بنزعته الساخرة إلى القول: «لولا تلك الواوات اللعينة لما كتب البياتي شعراً».

وبالطبع يصعب قبول هذا الحكم بجدية، لأن البياتي يملك الكثير غير تلك الواوات (اللعينة)!

وفي تلك الفترة أيضاً أوشك البياتي على تأطير نقدي في مساحة ضيقة كانت الواقعية – ذات الضفاف المتقاربة – قد اقترحتها مُناخاً للشعر الأَمْيَل إلى التاريخ، بل المشحون بهذا التاريخ في بعده الحَدَثيّ. وتبرز مقالة الشاعر (أُنسي الحاج) وهي بعنوان واقعية المرض والانفعال نموذجاً لذلك التأطير.

لكن هل استجاب البياتي لذلك الإختزال الشعري أم اندفع خارج الإطار المُحكم؟ سؤال تتولى الإجابة عنه أعماله الشعرية الغزيرة، التي تحولت بسبب هذه الغزارة إلى مصدّ جديد أمام المتابعة.

مفتاح آخر يمكن أن يُدار في أقفال البياتي هو نشأته، وتلك الإضاءات التي قدمها لطفولته في كتابه (تجربتي الشعرية) وكتابات لاحقة ذات علاقة بالسيرة الذاتية. إنه عبر هجرات متلاحقة، وأحياناً متعاكسة، كان يبني عتبات ثم يغادرها قبل أن يستكمل البيوت، ولو قُرِئَ ما قاله البياتي عن نفسه تحت مجْهر سايكولوجي لقدم للبَاحث قرائن جادة، ومُجْدية لفهمه من الداخل. إنه كائن بَريّ، لا يطيق منظومة العَائلة أو الجماعة أو حتى الحزب والنقابة؛ مقعده في المقهى هو محور النهار والليل وله ولع بالحواريّين، شأن كل أنداده ممن اجترحوا طريقاً في الغابة.

ولعل تشرده الارادي خارج البيت – أي بيت – جعل مكنوناته وباطنه أقرب إلى التمظهر، وبالتالي أقرب إلى الشفافية، فهو عبر تزجية قسريه للوقت يتحدث طويلاً، وقلما يقاطعه ندماؤه، وإن فعلوا فمن أجل التكريس، وتوكيد المقول حتى لو لم يطلب ذلك. لهذا كان البياتي (الإنسان) قد حجب البياتي الشاعر، بل بنى حوله أسواراً،وبرحيله – وتلك حالة نادرة – ستعاد قراءته محررة من تلك الضغوط ومن احترازات نقدية لاذ بها نقد اتسم بالنّطامن، وايثار السلامة!

وعلى سبيل الإستذكار الشخصي، فإن عبد الوهاب – كما عرفته – كان ينعم بأصدقاء كثر، لكنه في لحظة واحدة يبدو وحيداً مستوحشاً، فيبدأ بعزفه المنفرد.

سنوات «عمان» التي أعقبت حرب الخليج الثانية شهدت آخر عُقود البياتي، كان يقضي الساعات الطوال في (غاليري الفينيق)، وقلما يجازف بتغيير المكان، وأحياناً كنت اسأله:

– أهو الكسل أم الألفة مع الأمكنة؟

فيجيب بعبارات تذكرني بما قاله والت ويتمان الذي كان يجوب العالم وهو على سريره أو كرسيه الهزاز!

من مقهى البرازيلية في بغداد .. الى مقاهي «ريش» و«لاباس» و«اكسلسيور» القاهرية، مروراً بمقاهي دمشق وبيروت.. حتى الفينيق بعمان، ترك البياتي ظلالاً على المقاعد وربما على الجدران. ثلاثة مشاهد عصية على النسيان كلما طرق البياتي الذاكرة بقبضته القوية وساعده الممتلئ المتماسك.

أولها هو آخرها في مقهى «اكسلسيور» وفي أواخر شتاء قاهري دافئ. ما إن جلسنا حتى غفا. وكان قد بدأ يرتخي في الأشهر الأخيرة. وفي الشارع الذي تغير كثيراً خلال ثلاثة عقود، وتداعت بناياته العالية ذات الطراز الفرنسي، قلت له: يا عبد الوهاب بن عُبَيْد.. أما زلت لا تطلب صيداً؟ ضحك وقرأ الأبيات ذاتها التي طالما رددها في عدة عواصم:

[كُلّهم يطلب صيد

كلهم يمشي رويد ..

غير عمرو بن عُبَيْد]

وفي شتاءات عمان الباردة، وعلى الأرصفة العارية الموحشة، كنا نقطع الشارع ببطء وحرية كما تفعل القطط في أيام الآحاد الأوروبية باتجاه (السيفوي) الذي يفتح أبوابه طوال الليل.

نصر الزعبي، الموسيقي الأردني، كان يتقدمنا وهو يتأبط العود المحشو في بيته الجلدي ... ويوسف حسن الذي كان يجرب صوته الإذاعي بنا ... وجميل عواد بقامته المسرحية الفارعة ... والبياتي بالسيجارة التي لا تفارق أصابعه.

ما إن نطل من الباب حتى يقول أحد العمال لزميله وهو يتثاءب:

– جاءت الفِرْقة.

كانوا يظنوننا فرقة تغني في ليل عمان بسبب عُود نَصْر ومشية يوسف وقامة جميل، وربما لأسباب أخرى تتعلق بي.

ذات ليلة قلت لعبد الوهاب:

– إذا كنا بالفعل فرقة، فأنت مغني المقام العراقي، ولو أن ناظم الغزالي بقي حياً لظنه هذا العامل (أنت) ضحك حتى دمعت عيناه.

في مطعم التلال السبعة على طريق المطار في عمان، وقف سعدون جابر يغني عن «البدّات» وخدود القيمر، ويا طيور طايرة. وكانت الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان تتوسطنا، عبد الوهاب وأنا على مائدة قريبة من جرح جابر وصوته المبلول.

في تلك الليلة، حيث لم يبق سوى الهزيع الأخير، عدنا أنا وعبد الوهاب إلى منزل سعدون، وهناك بكى البياتي بحريّة، أما سعدون جابر، فقد لحس دموع البياتي بشفتيه.

وكانت ليلة ....

البياتي، عاصفة في الذاكرة، عصيّ على النسيان، ساطع الحضور، وعلى قدر أهل الحضور يأتي الغياب. بكل هذا الرنين وهذه الأصداء التي تمزج الضحك بالبكاء والوطن بالمنفى، والشعر بأقسى ما يفرز الغياب! أخيراً...

كثيرون منا سيدّعون البياتي، بل يشتبكون على يوم النعيم في ثنائيته (النعمانية). معذرة إن زعمت

بأني تاخمت شقاءه... وأحيانا كنت أصغي لصبي من باب الشيخ يلثغ بالعصيان الأول على عهد علاه الصدأ. إنه الآن، مثلما قال ميلر عن رامبو، يتقلب في قبره، حيث لا تبغ ولا مقهى ولا كتب، أو ندامى.

لكنه، رغما عن كل شيء، أو بفضل كل شيء، حرر شعره من شَعْبِه وعُرْوةً عُرْوةً، سيفك أزرار جسده شاهراً شعره غير مشوب بغباره أو زفيره.

افتقدناه ... نعم، فلم يكن هناك ما ينبئ بأن فائض العافية هو طريق آخر إلى القبر.

إنه معنا ... بيننا، لكن بصمت مقدس هذه المرة .. وشعره أمانة في اعناقنا!

أما جسده فهو أمانة أخرى في عنق مدينة جاورت بينه وبين محيي الدين بن عربي ..

بعيدة دمشق ...

قريبة .... دمشق

من يوقف النزيف في ذاكرة المحكوم بالاعدام قبل الشنق؟

خيري منصور
عمان